تسامح الإسلامِ مع غير المسلمين
(نماذج من التشريع والتطبيق)

د. نايف محمد المتيوتي*

المستخلص:

إن النظر إلى الأمور من زاوية واحدة يعطي صورة غير كاملة عنها وبالتالي ينعكس ذلك على المفاهيم التي تنبثق عن هذه النظرة، وهذا بالضبط ما حصل مع الكثير من غير المسلمين ولاسيما المتعصبين منهم – رجال دين ومفكرين وسياسيين ...–في نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين وفي عصور مختلفة، وعلى ذلك كانت فتاواهم وآراءهم وقراراتهم آخذة موقفا سلبيا تجاه الإسلام والمسلمين، وذلك أمر طبيعي بالنسبة لهم نتيجة نظرتهم الأحادية الجانب سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا – مع عدم إنكارنا وجود مثل هذه النماذج في عالمنا الإسلامي وربما كان ذلك ردة فعل مماثلة على أولئك–وهنا نريد أن نسلط الضوء على الأمور بشكل أكبر ليتسنى لنا معرفة الحقيقة.

المقدمة:

إنَّ السطور التي تحتويها هذه الصفحات ليست إلا جهداً يضاف إلى جهود سبقتها في بيان البعد الإنساني الذي حمله الدين الإسلامي والمسلمون تجاه الآخرين وبيان التسامح الذي حظي به غير المسلمين–لاسيما أهل الكتاب– في ظل الدولة الإسلامية (من حيث التشريع والتطبيق)، لنبين المعاملة الحسنة والتسامح الذي حظي به أهل الملل الأخرى في ظل الحكم الإسلامي، وقد تناول هذا الموضوع كثير من المؤرخين والباحثين في عصور مختلفة، إلا أن الهجمة التي يتعرض لها الإسلام والمسلمين اليوم من قبل الآخرين باتهامهم بالإرهاب والعنف والتطرف والعنصرية ... من اجل تشويه صورة الإسلام لصد الناس عن الإيمان به أولاً–بعد ما تبين انه الحق لدى الكثيرين منهم وكذلك الانتشار الكبير الذي حققه على حساب الأديان الأخرى – ولتبرير الهجوم على بلاد المسلمين ونهب خيراتها وإفسادها ثانيا.

لذا فإننا نرى من الضروري أن نقوم بإظهار الحقيقة وتعريفها للناس من غير المسلمين وتذكيرهم بالعدالة والتسامح الذي حظي به أسلافهم في كنف الدولة الإسلامية أبان قوتها وازدهارها في وقت كان المبدأ السائد في الدول الأخرى أن يكون الناس على دين الملوك ولا يسمح باعتناق دين مغاير والجهر به، انطلاقا من قوله تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ**

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [١].

وسنقوم هنا بعرض (نماذج فقط) من التشريعات التي خص بها الدين الإسلامي غير المسلمين من خلال بيان بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وكذلك بعض مواقف الصحابة ﷺ لأنها تعد في مقام التشريع أيضاً لقوله ﷺ (... فانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ...) [٢].

إذ وردت في القران الكريم–المصدر الأول في التشريع الإسلامي–آيات عدة تؤكد على حرية المعتقد وعدم اجبار الناس على اعتناق الاسلام واكراههم على ترك معتقداتهم ان ارتضوا ان يعيشوا تحت الحكم الاسلامي ومنها قوله تعالى **(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين)**[٣]، وقوله تعالى **(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)**[٤]، فيتبين انه ليس للرسولﷺ وبالتالي لايحق لاحد من المسلمين اكراه الناس على اعتناق الاسلام، فالرسول ﷺ حسب الاوامر الالهية داعيا ومبلغا ومذكرا ومبشرا ومنذرا ... ولم يكن لديه أمرٌ في إكراه الناس على أتباعه، هذا لغير المسلمين بشكل عام اما اهل الكتاب فقد وردت ايات عدة في القران الكريم خاصة بهم كقوله تعالى **(وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)**[٥] وهذه اية فيها امر صريح لكافة المسلمين بعدم مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى باستثناء الظالمين منهم الذين يبادرون بالإساءة للإسلام او الاعتداء على المسلمين، وقد اوضح القران الكريم كيفية الحديث معهم ومحاورتهم ودعوتهم الى الاسلام **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**[٦]، وقوله تعالى **(وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ**

---

(١) سورة المائدة/٨.

(٢) محمد بن حبان البستي، صحيح بن حبان، تحقيق: شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة (بيروت: ١٩٩٣) ج١، ١٧٩.

(٣) سورة النحل/١٢٥.

(٤) سورة الغاشية/٢١ . ٢٢.

(٥) سورة العنكبوت/٤٦.

(٦) سورة ال عمران/٦٤.

إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١) فالقران الكريم يامر المسلمين بتذكير اهل الكتاب بان الجميع يعبدون الها واحدا لان الاله الذي ارسل ابراهيم وموسى وعيسى والانبياء الأُخر عليهم السلام هو نفسه الذي ارسل محمدا ﷺ ورسالات الانبياء كلها واحدة فهي في اصلها تدعو الى توحيد الله وعبادته ونبذ الشرك، فان قبلوا واقتنعوا ودخلوا الاسلام كان بها وان تولوا فانكم قد بلغتم وحسابهم على الله.

وقد قال الله تعالى **(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**(٢)، **(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)**(٣)، ثم ان الله تعالى لو ارد ان يكون جميع الناس مؤمنين وعلى عقيدة لتحقق ذلك سواء بعث انبياء ورسل ام لم يبعث فمشيئته كائنة لامحالة **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)**(٤).

اما مسالة حساب الناس فهذا الامر متروك لله تعالى وحده ولايحق لاحد من المسلمين-بما فيهم الرسول ﷺ-محاسبتهم، قال تعالى مخاطبا نبيه محمد ﷺ **(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)**(٥)، وقوله **(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ)**(٦)، وقوله **(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)**(٧).

ومن تيسيرات الشريعة الاسلامية ان الله تعالى احل للمسلمين طعام اهل الكتاب واحل طعام المسلمين لهم، كما احل زواج المسلمين بنساء اهل اكتاب **(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)**، اما عدم اباحة زاوج المسلمات باهل الكتاب

---

(١) سورة العنكبوت/٤٦.

(٢) سورة البقرة/٢٥٦.

(٣) سورة الكهف/٢٩.

(٤) سورة يونس/٩٩.

(٥) سورة الرعد/٤٠.

(٦) سورة الشورى/٤٨.

(٧) سورة الغاشية/٢٥.٢٦.

فذلك لان اطِفالهن لن يكونوا مسلمين فالولد تابع لابيه وليس لامه، وبذلك نلاحظ المراعاة الكبيرة التي جاء بها القران الكريم لاهل الكتاب مع ان تعاليم الدينية لهم لاتسمح بالزواج من المسلمين.

اما السنة النبوية الشريفة فقد جاءت مطابقة لما جاء في القران الكريم من تعاليم بخصوص غير المسلمين، واتِباعها امر واجب وملزم لكافة المسلمين بعدّها المصدر الثاني في التشريع الاسلامي، واول احتكاك مباشر بين الرسول ﷺ واهل الكتاب حدث بعد هجرته ﷺ الى المدينة المنورة اذ وجد جزءاً كبيرا من مكونات مجتمعها من اليهود، فلم يرد ﷺ ان يسيء معاملتهم ولا حتى تجاهلهم ولذا كان لهم حظ كبير من تشريعات الوثيقة التي اصدرها بعد وصوله الى المدينة مراعيا حقوقهم الدينية والدنيوية، فكان مما جاء في هذه الوثيقة " ... وانه من تبعنا من اليهود فان له النصرة والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم"(١)، "وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وانفسهم الا من ظلم واثم فانه لايوتغ [لايهلك] الا نفسه واهل بيته"(٢)، ثم تذكر الصحيفة ما ليهود بني عوف من هذه الحقوق، ثم تذكر نصا يبين طبيعة التحالف بين المسلمين واليهود لاسيما في اوقات الازمات "ان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصرة على من حارب اهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم"(٣) وبذلك نلاحظ المعاملة الحسنة والمكانة التي حظي بها اليهود من الرسول ﷺ، الا ان بعض الباحثين الغربيين لاسيما ذوي الاصول اليهودية منهم يُبرّزون ويؤكدون على تنكيل المسلمين باليهود دون الاشارة الى ان اليهود هم اول من غدر وخان ونقض شروط هذه الوثيقة.

وعندما جاء وفد نصارى نجران الى الرسول ﷺ وحان وقت صلاتهم سمح لهم بالصلاة في مسجدة فصلوا متوجهين صوب المشرق رغم معارضة بعض الصحابة رضي الله عنهم، ثم دعاهم الى الاسلام بالتى هي احسن لكنهم رفضوا دعوته فصالحهم على الجزية وفرض عليهم الفي حلة تدفع على قسطين الف في رجب والف في صفر وان يعيروا المسلمين باليمن–ان دخلوا حربا–بعض السلاح، واقر لهم الحفاظ على انفسهم ودينهم واموالهم(٤)، وكان مما جاء في الكتاب الذي وقع بينه

(١) عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤف سعد، دار الجيل (بيروت: ١٤١١هـ) ج٣، ص٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٤.
(٤) محمد بن سعد، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق: على محمد عمر، مكتبة الخانجي (القاهرة: ٢٠٠٠) ج١، ص٣٠١

وبينهم " ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على افسهم ومادلتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وبِيَعهم، لايغير اسقف عن سقفياه، ولا راهب عن رهبانيته، ولاواقف عن وقفانيته"(١).

هكذا كانت معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب في الجانب الرسمي–ان جازت التسمية، اما في علاقته الاجتماعية معهم فحدث ولا حرج، اذ روي أن غلاما يهوديا كان يعمل لديه ﷺ فمرض الغلام يوما فاخذ الرسول ﷺ ثلة من أصحابه رضي الله عنهم وذهبوا لعيادته، فدخلوا عليه وابوه جالس عند راسه فلما لاحظ الرسول ﷺ ان الغلام في حالة ميؤس منها قال له: قل لا اله الا الله اشفع لك بها يوم القيامة، فنظر الغلام الى ابيه، فقال له انظر الى مايقول لك ابو القاسم، فقال الغلام اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله، فقال الرسول ﷺ: الحمد لله الذي انقذه من نار جهنم(٢).

كما روي عن انس ﵁ ان يهوديا دعا النبي ﷺ الى خبز شعير واهالة سنخة فاجابه الرسول الى دعوته رغم ان اليهودي كان فقيرا الا ان الرسول ﷺ لم يشأ ان يرده(٣)، وعندما ارسل المقوقس صاحب مصر مجموعة هدايا الى الرسول ﷺ قبلها منه وكان من بينها جارية قبطية اسمها مارية فتزوجها الرسول ﷺ وانجبت له ابنه ابراهيم ﵇(٤).

وبالمقابل كان الرسول ﷺ يتصدق على فقراء اهل الكتاب من بيت مال المسلمين اذ تصدق على بعض فقراء اليهود وظلت هذه الصدقة تجري عليهم، كذلك فعلت ام المؤمنين صفية رضي الله عنها(٥).

---

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠١.

(١) محمد بن حبان البستي، صحيح بن حبان، تحقيق شعيب الارناؤط، مؤسسة الرسالة (بيروت: ١٩٩٣) ج٧، ص٢٢٧ ؛ احمد بن حنبل الشيباني، مسند احمد، مؤسسة قرطبة، (القاهرة: د/ت) ج٣، ص١٧٥.

(٢) احمد بن حنبل، مسند احمد، ج٣، ص٢١٠.

(٣) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٩٠) ج٤، ص٤١.

(٤) القاسم بن سلام، الاموال، تحقيق: محمد حامد، (القاهرة: ١٩٥٣) ص٦١٣. ٦١٤.

وروي عن قتادة ﷺ ان يهوديا حلب للرسول ﷺ ناقة وطلب منه ان يدعو له فقال ﷺ وسلم اللهم جَمِّله فاسود شعر اليهودي [١].

كما شملت رعايته ﷺ حتى من توفي منهم اذ روي ان جنازة مرت بالقرب منه ﷺ فقام لها احتراما، فقيل له انها جنازة يهودي، فرد قائلا اليست نفسا!؟ وطلب من اصحابه رضي الله عنهم ان يقوما اذا مرت بهم جنازة[٢].

وبذلك نلاحظ السماحة الكبيرة والرعاية الكريمة التي حظي بها اهل الكتاب عند الرسول الاعظم ﷺ، ليس ذاك فحسب بل انه اكد في اكثر من مناسبة وشدد على ضرورة معاملة اهل الذمة معاملة حسنة وتوعد من لا يفعل ذلك بالعاقبة السيئة فقال ﷺ: "من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة اربعين عاما"[٣]، وفي رواية اخرى "من قتل معاهدا بغير حق لم يرح رائحة الجنة"[٤]، وقوله ﷺ "من قذف ذميا حد له يوم القيامة سياط من نار"[٥].

وفي السنة التاسعة للهجرة نزلت اية الجزية في قوله تعالى **(قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)**[٦]، هذه الاية التي استند اليها كثير من المغرضين بِعَدّها ظلم واجحاف من الاسلام بحق اهل الملل الاخرى، ولو عدنا لحقيقة الأمر لوجدناه مختلفاً جدا، فالجزية مبلغ بسيط من المال (او عوضه) يدفعه اهل الملل الاخرى لقاء عدة امور منها حمايتهم وحماية ممتلكاتهم وحرية معتقداتهم واقامة طقوسهم الدينية، أي ان اهل الذمة لايطلب منهم مشاركة المسلمين في حروبهم حتى الدفاعية منها بل يتكفل المسلمون بحمايتهم من الاخطار الداخلية والخارجية، ثم ان مبلغ الجزية مبلغ زهيد–اذا ما قورن بمبلغ الزكاة الذي يدفعه المسلمون–ولا يشمل جميع الناس من

(١) ابو بكر عبد الله بن محمد بن ابي شيبة، مصنف بن ابي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشيد (الرياض: ١٤٠٩) ج٥، ص٢٥٥.

(٢) محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة (بيروت: ١٩٨٧) ج١، ص٤٤١.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ج٦، ٢٥٣٣.

(٤) احمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز (مكة المكرمة: ١٩٩٤) ج٨، ص١٣٣.

(٥) سليمان بن احمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مطتبة العلوم والحكم (الموصل: ١٩٨٣) ج٢٢، ص٥٧.

(٦) سورة التوبة/٢٩.

اهل الذمة بل يقتصر على من يحمل صفات البلوغ والعقل والقدرة على حمل السلاح من الرجال فقط ويستثنى منهم النساء والصبيان والشيوخ والعجزة والمقعدين والعميان(١).

اذا الذين يدفعون الجزية هم فئة قليلة من اهل الذمة لاتتجاوز ربعهم في مقابل حمايتهم اجمعهم،ليس ذاك فحسب بل ان من لم يستطع دفعها بالعملة والنقد جاز ان يدفعها موادا عينية(٢)، كما انها تؤخذ نهاية الحول ولا يجوز ان تؤخذ قبله واذا اسلم او مات قبل ذلك سقطت عنه(٣)، بل ان من لم يجد مايدفعه ترفع عنه وفي بعض الاحيان ينفق عليه من بيت مال المسلمين كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كما سنلاحظ.

والذي تجدر الاشارة إليه هنا هو ان تشريعات الجزية هذه لم تقتصر على اهل الكتاب فقط بل شملت المجوس(٤) ايضا اذ روي عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ انه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول سنوا بهم سنة اهل الكتاب(٥).

وقد اعترف بعض الباحثين الغربيين بهذه الحقيقة وفي مقدمتهم توماس ارنولد(٦) الذي يقول في هذا المضمار "ان الجزية من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهل اهل الذمة وذلك لانها اعفتهم من الخدة العسكرية المفروضة على المسلمين"، ويقول في مكان اخر(٧) "ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين لونا من الوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام بل انها بدل عن مقابل خدمتهم في الجيش مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين"، ولو كانت الجزية عقوبة

---

(١) ابو الحسن علي بن محمد الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الحرية (بغداد: ١٩٩٨) ص٢٢٨. ٢٢٩ ؛ ابو عبد الله محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزية، احكام اهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، جامعة دمشق (دمشق: ١٩٦١) ج١، ص٤٢.

(٢) ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم، كتاب الخراج، دار المعرفة (بيروت:١٩٧٩) ص١٢٦.

(٣) ابن القيم، احكام اهل الذمة، ج١، ص٣٩.

(٤) المجوس هم اصحاب الديانة الزردشتية التي كان يدين بها غالبية الفرس، وهم يقولون بوجود الهين، اله الخير(اهورا مزدا) واله الشر (اهريمان) ويقدسون الشمس والنار ولهم كتاب يسمونه الافستا، للمزيد عنهم ينظر: ارثر كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام، وزارة التربية (القاهرة: ١٩٥٧) ص١٣٠ ومابعدها.

(٥) البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص١٨٩.

(٦) توماس ارنولد، الدعوة الى الاسلام، ترجمة وتعليق: حسن ابراهيم حسن واخرون، مكتبة النهضة العربية (القاهرة: ١٩٧٠) ص٧٧.

(٧) المصدر نفسه، ص٧٩.

لوجبت على جميع اهل الذمة ولم يستثنى منهم احد لاشيخ ولا امرأة ولا معاق هذا فضلاً عن انها تسقط عنهم في حال اشتراكهم في الدفاع عن دار الاسلام[١].

وقد غالى بعض المسلمين في تفسير معنى(الصغار) في اية الجزية فقالوا يجب اذلال الذمي حال دفعه الجزية بان يدفعها وهو قائم والمستلم جالسا، وان ياتي ماشيا لا راكبا، وان يسحب ويجر من يده لإعطائها، فأحسن الرد عليهم ابن القيم بقوله:[٢] "وهذا كله لادليل عليه ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة رضي الله عنهم انهم فعلوا، والصواب في الاية ان الصغار هو التزامهم لجريان احكام الملة عليهم واعطاء الجزية فان التزم ذلك فهو الصغار".

وهكذا يتبين ان صفة التسامح والبعد الإنساني كانت ركيزة أساسية في تعامل المسلمين مع الاخر، ولم يقتصر ذلك على اوقات السلم فقط بل حتى في ايام الحرب، اذ كان الرسول ﷺ اذا امّر اميرا على جيش او سرية " اوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، إذا لقيت عدوك من المشركين فاعهم الى ثلاث خصال او خلال فايتهن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ... (ثم يذكر الاسلام والجزية والقتال)"[٣]، وعندما اشتكى بعض اليهود للرسول ﷺ –عند فتح خيبر–من اعتداء بعض المسلمين على اموالهم، امر ﷺ بالمناداة للصلاة وقال مخاطبا المسلمين: "ان الله لم يحل لكم ان تدخلوا بيوت اهل الكتاب الا باذن، ولا ضرب نساءهم، ولا اكل ثمارهم اذا اعطوكم الذي عليهم"[٤].

وبذلك نلاحظ سماحة المسلمين وحسن خلقهم حتى في حروبهم مع الاخرين فكان ذلك من ابرز عوامل إقبال الآخرين على اعتناق الإسلام لا كما يدعى الكثير بأنه انتشر بحد السيف، يقول ارنولد[٥] "اذا نظرنا الى التسامح الذي امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين في صدر الحكم الإسلامي ظهر أن الفكرة التي شاعت بان السيف كان العامل في تحول الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق ".

---

(١) عبد الكريم زيدان، احكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام، مؤسسة الرسالة (بيروت: ١٩٨٨) ص١٢٣.

(٢) احكام اهل الذمة، ج١، ص٢٣. ٢٤.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي (بيروت: د/ت) ج٣، ص١٣٥٧ ؛ ابن حبان، صحيح بن حبان، ج١١، ص٤٢.٤٣.

(٤) ابو داود سليمان بن الاشعث السجستاني، سنن ابي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر (د/م: د/ت) ج٣، ص١٧٠ ؛ البيهقي، السنن، ج٩، ص ٢٠٤.

(٥) الدعوة الى الاسلام، ص٧٩.

ووفق هذه الأوامر القرآنية والتشريعات التي صدرت عن الرسول ﷺ سار من تبعه من خلفائه وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، فكان العدل والتسامح والعطف من أولى الأمور التي عاملوا بها اهل الذمة فمن وصايا ابو بكر الصديق ﷺ " يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله ..."(١).

وقد مثل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ انموذجا رائعا ونادرا في العدل والتسامح اذ حوت كتب السير والتاريخ مآثر كثيرة عنه لاسيما مع اهل الذمة، منها انه مر بباب قوم فوجد عليه شيخ كبير فاقد للبصر يسألهم، فضربه الخليفة على عضده وقال له من اي اهل الكتاب انت؟ فقال يهودي، فقال عمر ﷺ فما الجأك الى ما ارى؟ فقال اسأل الجزية والحاجة والسن، فاخذه عمر ﷺ بيده وذهب به الى منزله واعطاه مما في بيته ثم ارسل به الى خازن بيت المال وقال له انظر هذا وضربائه، فوالله ما انصفناه اكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، انما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من اهل الكتاب، ثم وضع عنه الجزية(٢)، كما مر اثناء ذهابه الى الشام بعد فتحها بقوم وضعوا في العراء تحت اشعة الشمس فقال ما شأن هؤلاء؟ فقيل عقوبة لهم لعدم دفعهم الجزية، فكره ذلك وقال: هم وما يعتذرون به فدعوهم ولا تكلفونهم ما لا يطيقون ثم امر بهم فخلى سبيلهم(٣).

هذا فضلا عن المعاهدة المشهورة التي وقعها مع اهل بيت المقدس عند فتحه والمعروفة بالعهدة العمرية، وما موقفه من حادثة القبطي وعبد الله بن عمرو بن العاص الا دليل عدالته وتسامحه مع اهل الذمة ورفضه وقوع الظلم عليهم ايا كان مصدره اذ روي ان قبطيا اشتكى الى عمر ﷺ ان عبدالله بن عمرو بن العاص ضربه لانه غلبه في سباق الخيل، فأرسل عمر ﷺ الى عبد الله واقتص للقبطي من وهو آنذاك ابن امير مصر وقال عمر ﷺ عبارته المشهورة متى استعبدتم الناس

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف (القاهرة:١٩٨٧) ج٢، ص٢٤٦.

(٢) ابو يوسف، كتاب الخراج، ص١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٥.

وقد ولدتهم امهاتهم احرارا[١]، وقبيل وفاته ﷺ قال لأصحابه: " اوصي الخليفة من بعدي باهل الذمة خيرا وان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل من وراءهم وان لا يكلفهم فوق طاقتهم"[٢].

وتروي بعض المصادر حادثة رائعة حدثت في خلافة علي بن أبي طالب ﷺ تعد أنموذجا يندر مثيله في بيان عدالة المسلمين وسماحتهم تجاه أهل الذمة ودليل قوي على حفظ حقوقهم القانونية في الدولة الإسلامية مهما كانت، وهي ان رجلا يهوديا تقاضى هو والامام علي بن ابي طالب-خليفة المسلمين-على درع للامام علي اخذه اليهودي وادعى انه له وليس للامام، وكان ذلك اليهودي ذا مكر ودهاء فاستطاع ان يقنع القاضي بحجته فاصدر القاضي الحكم لصالحه، فاندهش اليهودي لِمَا لاحظه وتعجب كيف ان قاضيا مسلما يحكم له ضد خليفة المسلمين وامامهم! ولذلك رجع الى القاضي واعترف بكذبته وان الدرع للامام علي ﷺ واعلن اسلامه [٣]، ولذلك نلاحظ ان كثيرا من اهل الذمة-عندما تحصل خصومات فيما بينهم-يلجأون الى قضاة المسلمين لايمانهم بعدالتهم في اصدار الاحكام.

كما ضمن الإسلام لأهل الذمة الاحتفاظ بدور عبادتهم من كنائس وأديرة ومعابد فضلا عن اقامة طقوسهم الدينية يقول الله تعالى **(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)**[٤]، يقول الزمخشري[٥] في تفسير هذه الاية " دفع الله بعض الناس ببعض اظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على اهل الملل المختلفة في ازمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعا ولا لرهبانيهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون من امة محمد ﷺ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين"، وذلك يعني ان من أسباب إظهار الله تعالى المسلمين ونصرهم على

---

(١) ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر، مصور عن طبعة ليدن، مكتبة المثنى (بغداد: د/ت) ص٢٢٦.٢٢٥.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص١٢٥؛ يحيى بن ادم القرشي، كتاب الخراج، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار المعرفة (بيروت: ١٩٧٩) ص٧٥.

(٣) ابو نعيم احمد بن عبد الله الاصفهاني، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٨٨) ج٤، ص١٤١.١٤٠.

(٤) سورة الحج/٤٠.

(٥) ابو القاسم جار الله بن محمود الزمخشري، تفسير الكشاف، تحقيق: خليل مامون شيحا، دار المعرفة (بيروت: ٢٠٠٥) ص٦٩٧.

المشركين هو لحماية دور العبادة للمسلمين وغيرهم من اهل الكتاب، وفي ذلك حق واضح لاهل الكتاب بالاحتفاظ بدور عبادتهم في الدولة الإسلامية، وقد اختلف فقهاء المسلمين حول هذه المسالة فقسموا بلاد المسلمين الى ثلاثة اقسام، **الاول** ما بناه المسلمين من مدن جديدة، وهذه لايجوز فيها بناء دور عبادة غير المساجد لانها مدن اسلامية صرفة، **الثاني** مافتحه المسلمون عنوة، قالوا تبقى دور العبادة القديمة لاهل الذمة ولا يحق لهم بناء دور جديدة، **الثالث** مافتحه المسلمون صلحا وفيها يحق لهم بناء دور عبادة جديدة ان لم يكن في شروط الصلح ما يرفض ذلك[١].

كما ترتب على حرية العقيدة على اهل الذمة حرية اقامة طقوسهم الدينية وما يتبعها من مسائل تشريعية مما اباحته دياناتهم، ياتي في مقدمتها اقامة صلواتهم في دور عبادتهم وحق التقاضي فيما بينهم وفق تعاليم دياناتهم، وكذلك ما اعتادوا عليه من مراسيم كالتعميد والزواج ودفن الموتى وشرب الخمر واكل لحم الخنزير وغيرها شرط ان لايكون فيها تجاوز على المسلمين، يقول الدكتور يوسف القرضاوي[٢]: "وليس عليهم في أحوالهم الشخصية والاجتماعية ان يتنازلوا عما احله لهم دينهم وان كان قد حرمه الإسلام كما في الزواج والطلاق واكل لحم الخنزير وشرب الخمر، فالاسلام يقرهم على مايعتقدون حله ولا يتعرض لهم في ذلك بابطال ولا عقاب، فالمجوسي الذي يتزوج احدى محارمه واليهودي الذي يتزوج بنت اخيه والنصراني الذي ياكل الخنزير ويشرب الخمر لا يتدخل الإسلام في شؤونهم هذه ماداموا يعتقدون حلها " وقد دلت الحوادث التاريخية على سماحة المسلمين في هذه الأمور باعتراف الآخرين، يقول ارنولد[٣] في ثنايا حديثه عن الأقباط في مصر بعد الفتح الإسلامي " وقد جلب الفتح الإسلامي لهؤلاء القبط ... حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بفترة من الزمان وقد تركهم عمرو بن العاص أحرار على أن يدفعوا الجزية وكفل لهم إقامة شعائرهم الدينية ... ".

وبعرض هذه الحقائق التي لاتمثل الا نماذج من أسس كثيرة شرعت واعتمدت في تعاليم الإسلام تجاه غير المسلمين يمكننا ملاحظة التسامح الذي حظوا به أولئك على عكس ما كانوا يعاملون به من حكوماتهم قبل الفتح الإسلامي لما حمله الإسلام من عدالة ورحمة وتسامح مع الآخرين بغض النظر عن انتماتهم العرقية والدينية مما حدا بالكثيرين منهم على اعتناق الإسلام دون تردد، ليس ذاك فحسب بل حتى الذين دخلوا الإسلام منهم لم يُمنعوا من صلة ذويهم الذين لم يسلموا،

---

(١) عبد الكريم زيدان، احكام الذميين والمستأمنيين، ٨٤.٨٢.

(٢) يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الاسلامي، ص٣٩.٤٠.

(٣) الدعوة الى الاسلام، ص١٢٣.

أي ان الدين الإسلامي لايرضى بقطع صلة الرحم حتى لغير المسلمين، قال الله تعالى **(لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)**[١]، وروي عن سعيد بن جبير ﷺ ان رجلا ممن دخل الاسلام من اهل الذمة جاء الى عبد الله بن عباس ﷺ وقال له ان ابي قد مات وهو نصراني لم يؤمن، فقال له ابن عباس ﷺ اذهب واغسله وكفنه وحنطه ثم ادفنه[٢].

هكذا مكن الاسلام لمبدأ التسامح واقر حرية الاعتقاد، ولم يبح للمسلمين اجبار الناس على ترك معتقداتهم واكراههم على اعتناق الاسلام قسرا في وقت كان بامكانهم فرض الاسلام على الجميع بحد السيف، وقد انعكس ذلك بدوره على اهل الذمة فظهرت نتاجاتهم الابداعية في المجالات كافة، وقد نقل المنصفين من مؤرخيهم الكثير من تلك الحقائق التي عاصروها[٣].

Islam toleration with non-Muslims
(Examples of legislation and application)

Dr.. Nayef Muhammad Al-Mtiouti

:Abstract

Looking at things from one angle gives an incomplete picture of them and therefore this is reflected in the concepts that emerge from this view, and this is exactly what happened with many non-Muslims, especially the fanatics of them - clerics, thinkers and politicians ... - in their view of Islam and Muslims and in different eras And based on that, their fatwas, opinions, and decisions were taking a negative attitude towards Islam and Muslims, and this is natural for them as a result of their one-sided view whether they feel it or not - with not denying the existence of such models in our Islamic world and perhaps this is a similar reaction to those - and here we want to shed more light on things so we can know the truth.

---

(١) سورة الممتحنة/٨.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، ج٣، ص٣٩٨.

(٣) ينظر مثلا: ا. س. ترتون، اهل الذمة في الاسلام، ترجمة: حسن حبشي، دار الفكر (القاهرة: ١٩٤٩)؛ بطرس نصري الكلداني، ذخيرة الاذهان في تاريخ المشارقة والمغاربة السريان (الموصل:١٩١٣).